رابعـــا مواقـــف الإبتـــلاء الاختياريـــة

عندما يشعر التلميذ المتتلمذ على تعليم أستاذه بأنه وصـل الـى درجـة الإتقان والثقة فيما تعلمه من أستاذه، فإنه يتجرأ بأن يطلب من أسـتاذه بأن يختبره حتى يعلم التلميذ ان ما إكتسبه ثابتا عنـده ، وأنـه مسـتعد لمواجهة أى إختبار ، مهما كانت صعوبته ، وهنا يبتسم الإسـتاذ مـن تلميذه ويقدم على ما تمناه تلميذه من وضع إختبار يناسب قدرات هـذا التلميذ .

وهذا إذا طبقناه فى تربية الرب لبعض عباده الذين إصطفـاهم بان يكونوا رسله الى العباد ، ومن أحسن من الله إذا ربى وعلم ، أما من تعلمه فبعضهم وصل الى درجة الإتقان العالى ، لدرجة انهم طلبوا مـن رب العالمين بأن يختبرهم حتى يكونوا على درجة أيقن مما هم فيـها ، مثل خليل الله إبراهيم الذى إبتلى فوفى ، قال تعالى { وإذ إبتلى إبراهيـم ربه بكلمات فأتمهن }(١) وقوله تعـالى { وإبراهيـم الـذى وفـى }(٢) فإستحق بأن يكون بمثابة أمه ، كما قال تعالى { إن إبراهيم كان أمـة }(٣) لأنه قام على تنفيذ جميع أوامر الله وإنتهى من كل نواهيه ، وبلغ الرسالة على أكمل وجه ، مهما كان ذلك مخالفا لقياس عقله كما سبق ذكر ذلـك فى مواقفه الإبتلائية ، وهذا مثالا ، للذين وصلوا الى هذه الدرجة الرفيعة

(١) البقرة ايه ١٢٤

(٢) النجم ايه ٣٧

(٣) سورة النحل آيه ١٢٠

الى جانب بعض الأنبياء الآخرين ، الذين وصلوا الى درجة رفيعة من درجات الحكمة ، والرفعة فى النبوة ، لدرجة انهم طلبوا من رب العالمين بأن يضعهم فى مواقف إختبار رباني ، لتزيد ثقتهم بالله وفى أنفسهم وفيما وصلوا إليه ، وسوف نذكر بعض الأمثلة بإذن الله فى هذا النوع من مواقف الابتلاء الاختياري مثل إبراهيم وموسى وداوود عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام .

الموقف الأول

إختيار إبراهيم بإبتلائه بكيفية إحياء الموتى

وصل إبراهيم عليه السلام لدرجة رفيعة من الإيمان عند ربه ، وكما يقال الصعود الى القمة أيسر من المحافظة عليها ، والقمة التى وصل إليها إبراهيم عليه السلام لم تكن بالشيء الهين الذى يستطيع أى إنسان أن يصل مثله ، فقد إختبر بإلقائه فى النار فلم يجزع ولم يطلب مساعدة من أى مخلوق ، وإختبر بترك ولده وحيده ، هو وأمه فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، لم يأبى ولم يعترض ، وأختبر بذبح نفس هذا الولد عندما إشتد صباه ، وكان فى أحوج الحاجة اليه فى شيخوخته ، فقدم على التنفيذ مسلما أمره لله عز وجل ، فأثيب على كل ذلك بدرجة الخليلية (خليل الرحمن) ، وأصبح إبراهيم عليه السلام بمثابة أمة ، وهو فرض واحد ، فهذه المكانة الرفيعة العالية ، خاف عليها إبراهيم الخليل عليه السلام وأراد أن يحافظ عليها بدوام اطمئنان قلبه بأنه لا يزال ، على أكمل وجه من توفى أوامر ونواهي الله عز وجل ، وأنه لا يزال متمما لكلمات الله عز وجل ، فأراد الإطمئنان وتثبيت قلبه على هذا الإيمان وهو يعلم عليه السلام أن الله مقلب القلوب بين أصبعيه ، ومن حقه أن يطمئن قلبه وأن يطلب من ربه ذلك بطلبه بأن يدخله فى إختبار وإبتلاء جديد ، ولكن هذا الإبتلاء هو من إختيار إبراهيم عليه السلام لكى ، يطمئن قلبه أنه لا

يزال نابضا متدفقا كما عهد الله اليه من قبل ، فطلب الخليل عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويرى ذلك أمام عينه حتى يثبت إبراهيم عليه السلام لنفسه أنه هذا الموقف ثابتا مطمئنا كعهد الله به ، مهما كان هذا الموقف غريبا ومنافيا للعقل ، فإبراهيم عليه السلام قادرا على تحمله ، كما تحمل المواقف الإبتلائية السابقة ، وبالفعل سأل ربه ، كيفية إحياء الموتى لا شكا بالله والعياذ بالله من أن يشك ، ولكن شك إبراهيم عليه السلام فى نفسه وفى قلبه من أن يكون قلبه غير متحملا لأى إبتلاء جديد وهذا حق كل مؤمن بأن يريد أن يحافظ على إيمانه، بأن يقول دوما ليل نهار إهدنا الصراط المستقيم ، وثبت قلوبنا على اليقين ، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، قال تعالى { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب }[1] روى أن أسماء بنت يزيد أبن السكن كانت تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه : اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالت قلت يا رسول الله وإن القلب ليتقلب ، قال نعم ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه " فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه

رحمة انه هو الوهاب "وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعوا " يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قلت يارسول الله

(١) سورة آل عمران ، آيه ٨

ما أكثر ما تدعوا بهذا الدعاء فقال " ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه أما تسمعى قوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب[١]

ولذلك طلب الخليل عليه السلام من ربه هذا الطلب المتضمن إختبارا وإبتلاءا لتحمله كى يطمئن قلبه قال تعالى {وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى}[٢] فقول الخليل عليه السلام ولكن ليطمئن قلبى) منصرف دلالة هذا الإطمئنان اليه والى قلبه بالتحديد من جهة إطمئنانه على نفسه ، فالشك هنا ليس منصرفا لله ألبته وفى قدرته الى إحياءه الموتى فكيف نفهم ذلك من سياق الآيه ، ونحن نعتقد بعصمة الأنبياء خصوصا فى قضية مثل هذه والأنبياء ، أكثر ما كانوا يبلغوه وأكبر قضية هى الإعتقاد فى اليوم الآخر بإحياء جميع الخلائق ومحاسباتهم فكيف يتأتى لخليل الرحمن بأن يفهم عنه أنه شك ؟ روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ وهو قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم : إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى[٣]

ولا يجوز لأى مخلوق بأن يقول أن الأنبياء يشكون لأن ذلك يعد كفرا والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث .

---

(١) انظر الصحيحين ، واصل حديث ثابت ، وغيرهما من طرق كثيرة ،وأنظر انب كثير تفسير القرآن العظيم ج(١)ص٣٤٨

(٢) سورة البقرة آيه ٢٦٠

(٣) البخارى : صحيح البخارى ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، كتاب التفسير ، ج٣ص١٠٨

قال صاحب الفتح ، لم يشك إبراهيم فى أن الله يحيى الموتى ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء فحصل لـــه العلـم الأول بوقوعه وأراد العلم الثانى بكيفيته ومشاهدته ويحتمل أنـــه ســأل لزيادة اليقين وإن لم يكن فى الأول شك لأن العلوم قد تتفاوت فى قوتـها فأراد الترقى من علم اليقين الى عين اليقين .[١] وهذا بالضبط ما ذهبنـا أليه من أن المؤمن الذى وصل الى درجة عالية مـــن الإيمـــان ، فإنـــه يحرص على أن يحافظ على هذه الدرجة ويظل قلبه غير مطمئن مـن أن يتقلب والعياذ بالله ،.فيبقى المحافظة على الدعاء بالتثبيت من قبل مثبـت القلوب ، سبحانه وتعالى ، فاستجاب مثبت القلوب ، الى عبده الذى يريده أن يطمئن قلبه بأن يدخله فى تجربة جديدة ، وإختبار عظيم ، وإبتـــلاء مثل الإبتلاءات التى إجتازها من قبل ، حتى يرى الخليـــل عليه السلام ثباتـه وسكينة قلبه ، وإطمئنانه ، لأن هذا الإختبار الجديد ، مهما وصـــل مـــن غرابة ، فأنه لن يكون مثل الإبتلاءات السابقة ، وإبراهيم عليه السلام قد أثبـت نجاحا من قبل ،.ولابد وأن يكون أيضا حائزا علـــى درجـــة النجـاح وبتفوق مثل الإختبارات السابقة ، لأن الله سبحانه وتعالى معه ، دائمـا ، وسيثبت قلبه دائما ، حتى يكون هذا القلب سليما ويقابل ربه بهذا القلـب وهوسليم قال تعـالى{ وإن من شيعته لإبراهيـم ، إذ جاء ربـه بقلـب سليم }[٢] فقد أستجاب الله لطلب الخليل ، فأمره بأن يأتى بأربعـــة مـــن

(١) ابن حجر ، فتح البارى ، ج٦ ص٣٢٠

(٢) الصافات ، ايه ٨٤

الطير فيذبحهن ثم يقطعهن أجزاء ثم يفرق أجزاءهن على مـــا يمكنـــه الوصول اليه من الجبال ثم يدعوهن اليه وسوف يرى كيف تعود اليـــهن الحياة حينما يرى اجزاء كل طائر منهن ينضم بعضها الى بعض حتـــى تتكامل ثم تسعى هذه الطيور اليه بعد أن تعود بإذن الله كما كانت قبل أن يذبحها ويقطعها ويفرقها على الجبال . فحدث ذلك أمام عيـــن الخليـــل عليه السلام، فلم يطر عقله من هول ما رآه ولكن ثبت قلبه وإطمئـــن ، لأن ثقته بالله أكبر من أن ينزع عقله فى عدم تصور ما يحدث أمامه ، مـــن أن هذه أجزاء قطعها هو بيده ، ونثرها فوق الجبال بنفسه ، وسالت دماء تلك الطيور على الأرض ، والعقل ، بأقيسته المنطقية يستبعد ، رجـــوع تلك الطيور الى ماكانت عليه من حياة ، لأن العقل ، كأداة متواضعـــة ، محدودة ، فإنه قاصر على إدراك هذا الامر ، والأفضل لأى عين تـــرى هذا الأمر أن ترجح ، كافة الثقة بالله ، وتجنب قياس العقل ، لأن الأخـير لو إستعملناه وسرنا فى ضربه لحملنا على أشياء لا تحمد عواقبها ، قـــال تعالى ، {قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم إجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم}[1]

(١) البقرة ٢٦٠

الموقف الثانى

إختيار الكليم بإختباره رؤية ربه

أراد كليم الله موسى عليه السلام بأن يسأل ربه رؤيته لكن هذا الأختبار كان اكبر من قدرة الكليم عليه السلام حيث أن قدراته وطاقاته محدودة ، حيث بشريته التى لا تتحمل رؤية الله عز وجل ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد ألا يخذيه ولكن شاء بأن يضرب له مثالا ليقيس عليه حتى يقتنع الكليم عليه السلام بأن الله سبحانه يريد به خيرا حيث محدودية طاقاته البشرية قال تعالى{ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين}[١]

والتعبير "بلن" يستكشل على من أنكر الرؤية ، على التأبيد ولكن ، الرؤية ثابتة بالقرآن والسنة ،[٢] وبالعقل ، ولو كانت غير ذلك لما سألها كليم الله عليه السلام ولو كانت الرؤية غير جائزة لكان السؤال منه جهل ومن يكون كذلك لا يكون أهلا الرسالة ، فضلا على أنه من أولى العزم من الرسل ، ونجد من سياق الآيه وما ذكر من حوار بين الكليم وربه ، انه سبحانه وتعالى لم ينهاه عن ذلك ولم ينهره ولم يعاتبه كمعاتبه لبعض

(١) سورة الاعراف ١٤٣

(٢) أنظر ، جمال محمد سعيد عبد الغنى ، الأباضية فى ميزان الإسلام ، عدد ٣٠ ص٤٠٨

أنبيائه ولكن نفى الرؤية هنا فى قوله لن ترانى، أى لن ترانـــى بطـــاقتك البشرية المحدودة هذه لأن طاقتك لا تتحمل رؤيتى كما أن الجبل الـــذى هو أقوى وأصلب منك ، لا يطيق مجـــرد تجلى البارى ســـبحانه عليـــه فهذا طلب الكليم عليه السلام من رب العالمين ، بأن يضعه فى هذا الإختبـــار من رؤيته سبحانه وتعالى ، ولكن الإمتحان أكبر من أن يتحملـــه الكليـــم عليه السلام ولذلك عندما وجد اثر التجلى على الجبل أغشى عليه ، وعندمـــا افاق من إغشائه إعترف بأنه كان غير محق فى هذا الطلـــب حيـــث لا طاقة له بهذا الإبتلاء فتاب الى الله ، واقر بأنه أول من آمن بأن الرؤيـــة لله عز وجل لابد وأن يؤهل إليها المخلوق حتى يكون على مستوى أعلى مما هو عليه ، حتى يطيق هذه الرؤية ، فثقة الكليم عليه السلام بالله جعلته يقـــو بذلك ، بأنه أول من آمن بهذا الموقف الأبتلائى وأن رجوعه الى الحـــق وإعتراف به توبه لم تكن عن ذنب مقصود متعمد ، بل كان رغبته مـــن أن يكون فى إختبار يظنه أنه يطيقه ويتحمله .

الموقف الثالث

إختيار الكليم عليه السلام بأن يختبر فى مواقف متعددة مع العبد الصالح

وقف كليم الله عليه السلام فى بنى إسرائيل خطيبا ، يذكرهم بالله عز وجل ويوعظهم ، وما أن إنتهى حتى سأله رجل ، : هل فى الأرض من هو أعلم منك ؟ فأجابه الكليم بالنفى ، فأوحى الله إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وأن فى الأرض من هو أعلم منه فقال الكليم عليه السلام يارب أين مكانه ، لعلى ألقاه ، وكان بداخل الكليم عليه السلام رغبة فى أن ينال من علمه شيئا ، وايضا رغبة فى أن يضع نفسه فى مواقف ، إختبار يمتحن نفسه بها، فدله الله على مكانه ،وعندما وصل اليه فعرفة طلب منه أن يصاحبه ، بإتباعه على أن يتعلم ، مما علم من ربه ، فاجابه العبد الصالح ، بأنه لن يستطيع الصبر على مواجهة مواقف الإختبار التى لها من الأسرار الربانية ما يخفى على العقول ولا يتماسك أمامها إلا من هو أهلا للثقة، بالله عز وجل ، فأجابه الكليم بأنه ، سيصبر بإذن الله ومشيئتة ، وأنه لن يعصى فى أمرا فإشترط عليه العبد الصالح بألا يتعجل الأمر ولا يسأل عن شىء حتى يخبره بعد ذلك ، بحقيقة ، تلك المواقف .

قال تعالى (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا

قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، قال فإن ،إتبعتنى فلا تسئلنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا}(١)

وإختار كليم الله عليه السلام بأن يضع نفسه ، فى مواقف إبتلائية مع العبد الصالح ، رغبة منه فى التعلم ، ولكى يختبر مدى ثباته ، على ما وصل إليه من مكانة عظيمة ، وسط قومه بنو إسرائيل ، وبالفعل ، حدث ذلك ، وواجه ، ثلاثة مواقف ، لم يستطع أن يوقف ، قياسه العقلى ، أمام ، ما يشاهده ، من أمور غريبة ، فقاس بعقله مدى نكران الجميل ، لمسكينين قدما لهم المساعدة ، فى عبور النهر، فخرق العبد الصالح سفينة المسكينين ،"فقال له موسى أخرقتها لتغرق أهلا ؟ لقد أرتكبت بعملك هذا أمرا عظيما ،"(٢) فذكره العبد الصالح ،بأنه لن يستطيع الصبر على ما سيواجهانه ، فتذكر الكيلم وعده ، وإعتذر ، ثم واجه موقف آخر ، إعترض فيه الكيلم ، متهما العبد الصالح بأنه جاء بفعل منكر بقتله غلاما ، لم يفعل ذنبا ، فذكره العبد الصالح بوعده ، فإعتذر الكليم عليه السلام ووعده بمفارقته ، إن سأله عن شىء آخر ، فواجهه موقف ثالث بأن مر على أهل قرية يسألوهم الطعام ، فرفضوا ذلك ، فوجدا فيها حائطا يكاد يسقط فأقامه العبد الصالح ، وتعجب موسى من فعل العبد الصالح ، يسيئون إلينا ونقدم لهم إحسانا ، وقبلها يحسنون الينا ونقدم لهم إساءة ، حينئذ ، قال الكليم ، لو شئت أتخذت أجرا مقابل بناء

(١) سورة الكهف : ٦٥ - ٧٠

(٢) محمد فريد وجدى ، المصحف المفسر ، طبعة الشعب ،ص٣٩٠

هذا الحائط ، عندئذ أخبره العبد الصالح بأن هذا هو الفراق وأنه سيخبره بالذى ، لم يستطع عليه الصبر ، لأنه قابل تلك المواقف بقياسه العقلى ، لأن لتلك المواقف أبعاد لا يعلمها إلا الله والإنسان قاصر على أن يفهم تلك المواقف ، أى يفهم حقيقتها ، لأن الخرق الذى حدث للسفينة كان وراءه هدفا ساميا ، وهو إعابة تلك السفينة حتى لا يأخذها ملك ظالم يستحوذ على ممتلكات الآخرين ، وأن الغلام الذى قتله ، كان وراءه مصير مشين لأنه كان سيؤذى والديه المؤمنين ، بعصيانه وكفره، وشاء الله أن يستبدلهما خيرا منه يعينهما على تقوى الله ، وأيضا الإحسان الذى قدمه لهذا القرية البخيلة ، كان وراءه يتيمين صغيرين ، تركا لهما أبوهما كنزا تحت هذا الحائط ،فأراد الله أن يبلغا أشدهما ليستخرجا الكنز بأنفسهم ، دون إغتصاب من هذه القرية الظالمة ، قال تعالى{ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينى غصبا، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنزهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا }(١)

(١) سورة الكهف ، ٧٩-٨٢.

وأقر العبد الصالح ، بأنه لم يفعل ذلك من قبل نفسه ولا بعلمه المحدود بل فعله ، بعلم الله وبمشيئته وبإذنه فكليم الله عليه السلام معذور أمام تلك المواقف لأنه لم يحط بها خبرا ، لأن تلك المواقف الإبتلائية ، يبتلى بها الإنسان ويقف أمامها حائرا متعجبا ، لأن أبعادها غير معلومة والفطن الكيس الذى يريد الله به خيرا يجعله متقبلا لها ، بثقة بالله عز وجل ، غير جذع مما يحدث أمامه ، لأننا فى كثير من الأحيان نكره الشيء ويكون فيه خيرا عظيما ، والعكس وارد ، فنحب الشيء ويكون فيه شرا لنا ، لأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم ببواطن الأمور ونحن لا نعلم فعلمنا قاصر محدود .

الموقف الرابع

إختيار داود عليه السلام بأن يختبر من قبل الله

كان داود عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقرأ عنهم الكثير فيما وصلوا اليه من مكانة عالية رفيعة عند ربهم ، وتمنى بأن يكون مثلهم ، فدعا ربه بذلك فأخبره سبحانه وتعالى بأن هؤلاء إبتلوا إبتلاء عظيما وإختبروا فى مواقف عديدة فنجحوا فيها ، فطلب داوود عليه السلام من ربه بأن يختبره فى أى موقف ، وأن يبتليه ، إبتلاءا يظهر مكانة ثباته وإيمانه وثقته فى ربه ؛" قال الثعلبى ،قال قوم من العلماء : إنما إمتحن الله داود بالخطيئة ؛ لأنه تمني يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وسأل ربه أن يمتحنه نحو ما إمتحنهم ، ويعطيه نحو ما أعطاهم ، وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوم يقضى فيه بين الناس ، ويوم يخلوا فيه بعبادة ربه ، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فقال يارب أن الخير كله قد ذهب به آبائى ؛ فأوحى الله تعالى إليه ، إنهم أبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا[1] وعدد له مواقف إبتلاء أبائه ,ونجاحهم فيما أختبره فيه ، ثم قال له " ولم تبتلى أنت بشىء فقال داود عليه السلام فابتلنى بمثل ما أبتليتهم ، وأعطنى مثل ما أعطيتهم فأوحى الله تعالى إليه ، أنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج١٥ ١٦٧

الجمعة ، فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلى ويقرأ الزبور .[١] وفى رواية أخرى أبو بكر الوراق ، ذكرها القرطبى فى تفسيره ، حيث قال : كان داوود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال هل فى الأرض أحد يعمل كعملى ، فأرسل الله إليه جبريل ، فقال : إن الله تعالى يقول لك أعجبت بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبت ثانية وكلتك الى نفسك ، قال يارب كلنى الى نفسى سنة قال : إن ذلك لكثير ، قال فشهرا ، قال أن لك لكثير ، قال فيوما قال إن ذلك لكثير ، قال يارب فكلنى الى نفسى ساعة ، قال فشأنك بها ، فوكل الأحراس ، ولبس الصوف ، ودخل المحراب ، ووضع الزبور بين يديه [٢] ففى هاتين الروايتين السابقتين ، كان داوود عليه السلام هو الذى يطلب الإبتلاء والإختبار من قبل ربه ، أما سفيان الثورى فيذكر ان داود عليه السلام إختار الابتلاء لمدة ثانية متضائلا بها بأن يكون فيها إختبار بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى إبتلائه أكثر منها

قال سفيان الثورى " قال داود ذات يوم : يارب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم ، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم فأوحى الله إليه ، يا داود منك ذلك أو منى ؟ وعزتى لأكلنك الى نفسك قال : يارب أعف عنى ، قال أكلك الى نفسك سنة ، قال : لا بعزتك قال فشهرا قال لا بعزتك ، قال فأسبوعا ، قال لا بعزتك ، قال فيوما

(١) المرجع السابق :ص١٦٧

(٢) المرجع السابق ج١٥ ص١٦٩

قال : لا بعزتك ، قال فساعة ، قال : لا بعزتك قال فلحظة فقال له الشيطان: وما قدر اللحظة ، قال كلنى الى نفسى لحظة ، فوكله الله الى نفسه لحظة ، وقيل ، هى فى يوم كذا وفى وقت كذا ،فما جاء ذلك اليوم جعله الله للعبادة ، ووكل الأحراس حول مكانه وخلا بعبادة ربه ، ونشر الزبور بين يديه[1] فكانت فتنة داوود فى المحراب ، بأن إختبره الله فى هذه الثانية التى إختارها ، وما حكم فيه بين الخصمين ، الذين تسورا المحراب ، ودخلا عليه فجأة ، وكان ملكين ، ففزع منهما فطمأناه ، "

قال الشيخ النجار " إن داود جزأ أزمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما لخاصة نفسه فتسور عليه ملائكة فى صورة الناس فى يوم الخلوة والإحتجاب ، والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه ، ففزع منهم فقالوا له لا تخف نحن فوجان مختصمان بغى بعضنا على بعض – فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط (لا تجر فى الحكم) وأهدنا الى سواء الصراط (وهو العدل) إن هذا أخى (فى الدين والصحبة) له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها (أى ملكنيها) وعزنى فى الخطاب (أى غلبنى فى الحجة أو فى خطبة المرأة) فأجاب داود قائلا لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه (منكرا فعل خليطه ومهجا طمعه) وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم(أى قليل وجودهم وكأنه يتعجب لقلتهم)

(١) المرجع السابق ج١٥ص١٦٩

وظن داوود إنما فتناه (إبتليناه بالذنب وأمتحناه بالحكومة ليتنبه) فاستغفر ربه لذنبه وخر راكعا وأناب الى الله تعالى بالتوبة[١] وفطن داوود عليه السلام إلى أن الموقف الذى تعرض إليه هو الإمتحان الذى كان ينتظره ، والإبتلاء الربانى الذى فتن فيه، وحكم عليه السلام بين الخصمين ، وفتنته ليست محددة، المعالم ، هل هى إبتعاده عن الناس وإنشغاله بالعبادة فى هذا الوقت بالذات وهم محتاجون إليه ، أم تسرعه بالحكم بين الخصمين قبل أن يسمع الخصم الآخر ؟ أم خوفه منهما ، بعد أن تسورا المحراب وفوجئ بهما ؟ أم هى القصة التى دار حولها الشكوك ، والأرجح أنها متبعها إسرائيلى والخاصة بما قيل ، فى حق داود عليه السلام مع المرأة التى كانت لقائده الشجاع والمقاتل أوريا بن حنان ؟ وعلى كل فإن فتنة داود عليه السلام وقعت ولا محالة ، بصرف النظر عن ماهية وحقيقة هذه الفتنة ، والشاهد فى فتنة داود عليه السلام أن الإنسان المؤمن يجب أن يبتعد نفسه عن إختيار وضعه فى إختبار مع الله عز وجل ، بمعنى أنه لا يوكل لنفسه ذلك طرفة عين ، وطرفة العين أقل من اللحظة التى يستقلها ويستهون بها ويتضائلها أى مؤمن ، لكن الإختبار إذا جاء من قبل الله بعيد عن إختيار الإنسان فإن الله سبحانه يعينه على هذا الإبتلاء مهما طال به العمر ، المهم أن يضع ثقته بالله عز وجل ، حتى تنزل السكينة والطمأنينة على قلبه ، ولا يقيس بعقله المحدود ، هذا الموقف

(١) عبد الوهاب النجار

الإبتلائي ، بموازين منطقية عقلية ، لأن ذلك فيه الجذع والتهلكة ، والعياذ بالله

قال تعالى { وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وإهدنا الى سواء الصراط ،إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود إنما فتناه فإستغفر ربه وخر راكعا وأناب}[١]

(١) سورة ص أيه – ٢١-٢٤

خامسا مواقف الإبتلاء المتعلقة بالثقة بالله يسبقها قليل من العقل فىكثير من المواقف الإبتلائية لعباد الله المؤمنين يكون ، تعلق تلك المواقف فى الثقة المطلقة بالله عز وجل ، لكن الإنسان هو الإنسان بعقله وجدله ،قال تعالى { وكان الإنسان أكثر شيء جدلا }[1] وهذا الجدل الإنساني يتأتى من سماع الإنسان لبعض الأخبار، التى هى فوق ، إدراك العقل ، والعقل يقف أمام تلك الأخبار موقف المجادل المراجع المندهش ولو لمدة دقائق معدودات ، وهذه الدقائق المعدودات وهذا الجدل ، لا يقلل من تعلق تلك المواقف الأبتلائية ، من تعلقها بالثقة المطلقة بالله عز رجل ، وسوف نعرض بمشيئة الله عدة مواقف إبتلائية من قبل الله لعبادة ، تتعلق بالثقة فيه سبحانه وتعالى لكنها ، بدأت بقليل من القياس ، والجدل البشرى الذى لا يقلل من شأن تلك المواقف الإبتلائية لأصحابها لأنهم مهما وصلوا الى درجة سامية عند الله ، فإننا لا ننسى أنهم بشر .

الموقف الأول

موقف إبراهيم الخليل عليه السلام من بشارة الملائكة له بإسحاق عليه السلام

بشرت الملائكة إبراهيم عليه السلام بغلاما عليم يدعى إسحاق عليه السلام وكان الخليل عليه السلام قد كبر سنه ، هو وزوجه سارة فضلا على أنها كانت عقيم لا تلد فعندما بشر بالغلام إندهش لدقائق قليلة وقاس ذلك ببشريته وبالقياس العقلي ، أن الهرم والكبر كيف ينتج أولاد ، رغم أنه كان على

(١) الكيف آيه ٥٤

يقين أن الله على كل شيء قدير ولم يكن موقف إبراهيم عليه السلام من تلقى الخبر بهذه الصورة إلا تعجبا مما يسمع ، ومن نتيجة هم يخبرونه بها ، مقدماتها مفقودة لكن الله على كل شيء قدير قال تعالى } وبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ، قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون {[1]

قال الشيخ الرازى ، لفظ ما ههنا إستفهام بمعنى التعجب كأنه قال بأى اعجوبة تبشروننى ؟ فإن قيل : فى الآيه إشكالان : الأول : أنه كيف إستبعد قدرة الله على خلق الولد منه فى زمات الكبر وإنكار قدرة الله تعلى فى هذا الموضع كفر . والثانى كيف قال (فيم تبشرون) مع أنهم قد بينوا ما بشروه به ، وما فائدة هذا الإستفهام ؟ قال القاضى ، أحسن ما قيل فى الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا ، ثم يعطيه الولد ، السبب فى هذا الإستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل فى حال الشباب[2] وقد سجلت الآيه قول ابراهيم عليه السلام أن الجاذعين القانطين من رحمة الله هم الضالون ،

---

(١) سورة الحجر أيه ٥١-٥٦

(٢) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ج١٩ دار الفكر الطبعة الاولى ١٩٨(١)ص١٩٩

وهو لم يكن أبدا كذلك ، فهو كان عليه السلام إيمانه يوازن إيمان أمة ونهى إبراهيم عليه السلام عن القنوط لا يعنى أنه كان به شيء منه ، لأن نهى الإنسان عن الشيء لا يعنى أنه فعل هذا الشيء

قال ابن عباس قوله بشرناك بالحق) يريد بما قضاه الله تعالى ، والمعنى أن الله تعالى يرد أن يخرج من صلب إبراهيم عليه السلام أسحق عليه السلام ، ويخرج من صلب إسحاق مثل ما خرج من صلب آدم فإنه تعلى بشر بأنه يخرج من صلب إسحق أكثر الانبياء ، فقوله (بالحق) إشارة الى هذا المعنى وقوله(فلا تكن من القانطين) نهى لإبراهيم عليه السلام عن القنوط ، وقد ذكرنا كثيرا ان نهى الإنسان عن الشى لايدل على كون المنهى عنه فاعلا له كما فى قوله تعالى (ولا تطع المنافقين) ثم حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال (ومن يقنط من رحمه ربه إلا الضالون)

هذا الكلام حق لأنه القنوط رحمة من الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور : أحدها أن يجهل كونه تعالى قادرا عليه ، وثانيها : أن يجهل كونه تعالى عالما بإحتياج ذلك العبد اليه ، وثالثها ، أن يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة ، فكل هذه الامور سبب للضلال، ولهذا المعنى قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)[1]

(١) المرجع السابق ص٢٠٢)ج١٩

فثقة ابراهيم عليه السلام فى ربه لم تتزحزح لحظة ، وما حدث منه فى هذا الموقف كان مجرد ؛وقفة بشرية أمام خبر فاق عقله ، فتوقف أمامه بقياسه العقلى ، بمراجعته للمبشرين ، بقليل من الجدل ، لكنه ادرك انه مسلما لله وبما يخبره به ، مهما كان هذا الخبر مستحيلا فى قياس العقل ومنطقه.

الموقف الثانى

موقف إبراهيم الخليل عليه السلام بجدله مع الملائكة بخصوص إبن أخيه

بعد أن بشرت الملائكة ، الخليل إبراهيم عليه السلام بالغلام العليم سألهم عن مقصد ، سيرهم وهم جمع ، حيث أنه فطن الى أن مجيئهم لم يكن للبشارة وحسب ، لأن البشارة يكفيها ملك واحد ، لكنهم جمع ، وهذا الجمع لابد وأن يكون وراءه مقصد وهدف ، فأخبروه أن مقصدهم القوم المجرمين ، قوم لوط عليه السلام إبن أخيه ، فجادلهم عما جاءوا من أجله بأن هذه القرية فيها لوط عليه السلام وهو من المؤمنين ، فطمأنوه أن هلاكهم تلك القرية ، لم يكن ولن يكون عشوائيا لأنهم يعلمون بإذن الله من فيها من المؤمنين قال تعالى { ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا إمرأته كانت من الغابرين }[1] فكان إبراهيم عليه السلام يظن أن الهلاك سيشمل جميع سكان القرية ، وهذا

(١) العنكبوت آيه : ٣١-٣٢

قياس بشرى يعذر فيه من سمع الخبر لأول وهلة ، وهناك رأى آخر فى أن جدل إبراهيم عليه السلام كان وراءه هدف التأخير ، تأخير العذاب حتى يأتى العفو من الله عز وجل ، ولا يمكن أن نقول أن جدل إبراهيم عليه السلام كان وراءه رفض لقضاء الله وما أراده بهذه القرية لأن ذلك يتنافى مع ما مدح به عليه السلام من أنه حليم أواه منيب

قال الفخر الرازى (هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهى جرءة على الله ، والجرءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ، ولأن المقصود من هذه المجادلة إلة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وأنه كفر . وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى أيضا عجيبة ، لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط ، فإن كان قد إعتقد فيهم إنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون فى هذا الإهلاك فهذا سوء ظن بهم ، وإن اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاؤوا فهذه المجادلة تقتضي أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر . والجواب من وجهين .

الوجه الأول {وهو الجواب الإجمالي أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآيه فقال (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ولوكان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم .

الوجه الثانى {وهو الجواب التفصيلى أن المراد من هذه المجدلة سعى إبراهيم فى تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه .

الوجه الأول (أن الملائكة قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) فقال إبراهيم أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا قال : فأربعون قالوا لا . قال : فثلاثون قالوا لا . حتى بلغ العشرة قالوا : لا قال :أرأيتهم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا فعند ذلك قال : إن فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذه فى سورة العنكبوت فقال (ولماجاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية أن اهلها كانوا ظالمين قال أن فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه وأهله وإلا أمرأته كانت من الغابرين)

الوجه الثانى (يحتمل أن يقال إنه عليه السلام كان يميل الى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصى ، وربما وقعت تلك المجادلات بسبب أن أبراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بإيصال العذاب ، ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التأخى فأصبروا مدة أخرى ، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور ، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ، ثم أخذ كل واحد منهم يقررمذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجالدة بهذا السبب ، وهذا الوجه عندى هو المعتمد .

{الوجه الثالث } فى الجواب لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطا بشرط فأختلفوا فى أن ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه[1]

(١) الفخر الرازى : ج١(٢)ص٣١

وعلى كل فإن الجدل قد وقع بين الخليل عليه السلام والملائكة بصرف النظر عن سبب هذا الجدل ، والشاهد من هذا الجدل أن ثقة إبراهيم عليه السلام فى ربه كانت راسخه بقلبه ، وما حدث من هذا الجدل هو مجرد مناقشة منطقية وجهها الخليل عليه السلام الى رسل الله ، لاإعتراض منه على أمر الله ولكن رحمة بقوم لوط عليه السلام بأن ينتظر منهم التوبة والإنابة ، أو أنه خشى على لوط نفسه من أن يلحق به العذاب وهو لا يزال فى هذه القرية هو ومن آمن معه . فطمأنته الملائكة أن هذه القرية ، ستعذب بحجارة موسومة أى تعرف أصحابها حتى ولوكان لوطا نفسه بداخل هذه القرية ،

قال تعالى { قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا إرسلنا الى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين }(١) والمهم أنه علم من أن عذاب تلك القرية واقع ولا محالة وأنهم سيخرجون من كان فيها من المؤمنين وهنالك طلبوا من الخليل عليه السلام بأن يكف عن جدله ، وعن أقيسته العقلية وتذكر ثقته بالله عز وجل ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب إلا من إستيئس من توبته ، وأن المطيعين تلحق بهم رحمة الله حتى ولو ذاغوا قليلا ،قال تعالى {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء امر ربك وإنهم ءاتيهم عذاب غير مردود }(٢)

(١) سورة الذارات آيه ٣١-٣٤

(٢) سورة هود آيه ٧٤-٧٦

الموقف الثالث

إبتلاء سارة زوج إبراهيم عليه السلام بتبشيرها بالغلام العليم عندما بشرت الملائكة سارة بأنها ستحمل وتلد ، رغم شيخوختها ورغم عقمها تعجبت ، وضربت صدرها ، من أثر الدهشة، وقالت ألد وأنا عجوز عقيم ، وكان تعجبها فى محله بمقياس العقل البشرى ، حيث أن العقل يستبعد حدوث ذلك لأن مقدماته لا توحى بهذه النتيجة ، لكن قدرة الله ومشيئته أكبر من أى قياس منطقى بشرى ، والمؤمنون والمؤمنات يضعون ثقتهم بالله ، فسرعان ما يرجعون الى رشدهم ، بتذكرهم ثقتهم بالله عز وجل قال تعالى { وأمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت ياويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد}[1] وقال تعالى {فأقبلت إمرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم }[2] وتعجب سارة لم يكن مبنيا على شكها بالله ولا فى قدرته ، فحاشاها أن نظن فيها ذلك ، ولكن التعجب كان مبينا على مخالفة ما تعارف عليه الناس من أن العقيم والشيخ الهرم ، يستبعد إنجابهما أولاد ، فقولها إنها " إنها تعجبت من قدرة والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه : أولها : قوله

(١) سورة هود آيه ٧١-٧٣

(٢) الذاريات آيه ٢٩-٣٠

تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب (ألد وأنا عجوز) وثانيها : قوله (إن هذا لشىء عجيب) وثالثها : قول الملائكة لها (أتعجبين من أمر الله) وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى ، وذلك يوجب الكفر .

والجواب : أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فإن الرجل المسلم لو اخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبا إبريزا فلاشك أنه يتعجب نظرا إلى أحوال العادة لا لأجل أنه إستنكر قدرة الله تعالى على ذلك .[1] والتعجب حصل من أجل مخالفة العادة ، لأن سارة كانت تشاهد عجائب تحدث فى بيتها ، خصوصا لزوجها الخليل عليه السلام ولذلك وجهت الملائكة لها هذا الاستفهام (فقد حكى الله تعالى أن الملائكة قالوا (أتعجبين من أمر الله) والمعنى : إنهم تعجبوا من تعجبها ، ثم قالوا(رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يزيل ذلك التعجب وتقديره : إن رحمة الله متكاثرة وبركاته لديكم متعاقبة ، وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فإذا رأيت ان الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى إظهار خوراق العادات وإحداث البينات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب .[2] وبذلك زال التعجب ، من نفس سارة بتذكرها أنها من أهل البيت وأن السلام على

(١) الفخر الرازى : ج١٢ص٢٩

(٢) المرجع السابق ص٢